الجزيل وأصبحنا في الهناء والرفاهية وكمال الامن في المعاملات وقضينا العمر بنعيم والله ولي التوفيق .

ثم لا يخطر ببال القارئ من سياق هذه الكلمة أن سلوك سبيل الاستقامة هو مامور به من لدن الشريعة الاسلامية فحسب كلا بل سنته سائر الشرائع الالهية خصوصاً شريعة موسى وعيسى عليهما السلام ، حول كل المصلحات للنوع البشري والمهذبات لاخلاقه والمنتجات استقامته وصلاح حال المجتمع والامن على الحقوق وانتشار السلام لا سيما في امر الاخلاق والدعة واللين في شريعة سيدنا عيسى عليه السلام فكل من يحيط علماً بوصاياها يستنتج أنها مبنية على السلام والتباعد عن كل شر يسيء النوع الانساني .

فانما الامم الاخلاق ما بقيت
فان هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

الجزاري

قدماء المحاربين

سيعقد قدماء المحاربين مؤتمرهم هذا العام بعاصمة الجزائر في سادس ابريل المقبل ، وكثيراً ما يتناول قدماء المحاربين في مؤتمرهم السنوي أهم المسائل العمرانية ويبحثونها بحثاً مستفيضاً يكون له الاثر الفعال في الرأي العام وفي الدوائر الرسمية مراعاة لمكانة قدماء المحاربين بين طبقات الامة ، ولتجرد بحوثهم عن السياسة وخلافات الاحزاب ، وقد أظهروا في كل مؤتمراتهم السابقة اعتناء كبيراً برفقائهم المسلمين الامر الذي يدل على تمسك قدماء المحاربين بمبدئ المساواة الذي كان خير رابطة بين الجميع في ميادين الحرب العالمية ، وبهاته المناسبة نلفت النظر الى ما كتبناه على صفحات المجلة في شأن المجاعة المنتشرة بين اخوان هؤلاء المحاربين المسلمين سواء في المغرب أو الجزائر وتونس وما يوجب ذلك من عناية وتنظيم ، فنرجو من قدماء المحاربين الافاضل أن يهتموا بهاته المسألة اهتمامهم بكل ما يرفع من شأن فرنسا والاقطار المحمية بها ، وبذلك يزيدون عملاً آخر الى ما أسلفوا من أعمال مشكورة .

نشأة الادب العربي بالمغرب
في عهد الدولتين المغراوية واليفرنية
(٣)

وكان زيد بن عطية الذي تكلمنا عليه في العدد الاخير ذا شخصية قوية ممتازة ووالياً جبّاراً ما ظفر بعدوه الا أهلكه وكان يضاهيه رجل يفرني في القوة والرياسة والحسب والمال وهو يد بن يعلى اليفرني من أعيان قبائل زناتة وكانت الحرب بينهما سجالا وكانت الرعية في شغب عظيم وتعب كبير بسبب الحروب الكثيرة التي كانت بين هذين الرجلين فكان اذا غلب احدهما الاخر دخل الغالب الى العاصمة الكبيرة فاس فلما ذهب زيد بن عطية الى الاندلس انتهز الفرصة خصمه الالد وأغار على العاصمة وأخذها فوصل الخبر الى زيد بن عطية وهو راجع من الاندلس فأغذّ السير والتقى مع خصمه فظفر به وحزّ رأسه وأرسله الى الخليفة المنصور ، عند ذلك صفا لزيد بن عطية الجو وأمن من غوائل الدهر ، قال صاحب الاستقصا : وصفا له المغرب ولم يبق له منازع وهابته الملوك وبقي الامر مستقيماً بينه وبين المنصور في الظاهر فسمت همته الى بناء مدينة تكون خاصة به وبقومه وأرباب دولته فبنى مدينة وجدة وشيد أسوارها وأحكم قصبتها وسكنها بأهله وحشمه ونقل اليها أمواله وذخائره وجعلها قاعدة ملكه لكونها واسطة البلاد وثغراً للعالتين ـ المغرب الاقصى والاوسط ـ وذلك سنة ٣٨٤ ، ويقول الفقيه محمد ابن عبد السلام السائح في كتابه المنتخبات العبقرية : ان الذي أسس وجدة هو يد بن يعلى اليفرني ولم أدر من أين أتى بهذه القولة الغريبة وقد اختص بها دون سائر المؤرخين .

انقضت أيام زيد بن عطية وتوفي وهو مخالف للمنصور بن أبي عامر من جراحاته التي أصابته في الحرب مع عبد الملك المظفر ولد المنصور وخلفه ولده المعز بن زيد بن عطية وصالح المنصور وقام بدعوته ورجع الى طاعته وبقي موالياً له الى أن توفي المنصور وولي ابنه المظفر فبايعه وأدى له رسوم الملك من هدايا وتحف فولاه على سائر بلاد المغرب حواضره وبواديه وذلك سنة ٣٩٣ وشرط على المعز أن يعطيه مالاً معلوماً وخيلاً ودَرَعاً يوصل ذلك الى قرطبة

وأعطاه مع ذلك ولده معنصر بن المعز رهناً وكتب له بذلك عهداً نقله صاحب الاستقصا بتمامه .

وعلى كل حال فقد كانت المواصلة بين خلفاء بني امية الاندلسيين وولاتهم المغراويين متصلة وكانوا يتكاتبون باللغة العربية الفصحى وكان القاضي هو المنوط به قراءة كتب الخلفاء لانه في اعتقاد القوم الركن الديني الذي يلجأ اليه الكل ولسان الشريعة الاسلامية المطهرة وكان هو الذي يجيب الخليفة من انشاءه بعد قراءة الجواب على الوالي المغراوي غير أن هذا العهد الى المعز الذي ذكره صاحب الاستقصا يقول فيه عبد الملك المظفر: وقد وجهنا الوزير أبا علي ابن حزيم أكرمه الله وهو من ثقاتنا ووجوه رجالنا لياخذ بشأنه ويؤكد العهد فيه عليه بذلك وامرناه باشراككم فيه ونحن بامركم معتنون ولأحوالكم مطلعون الى أن يقول : وليض القاضي أبو عبد الله أحكامه مشدوداً ظهره بنا معقوداً سلطانه بسلطاننا ولا تاخذه في الله لومة لائم فذلك ظننا به اذ وليناه وأملنا فيه اذ قلدناه.

فأنت ترى أن هذا القاضي المذكور هو غير القاضي الذي كان في زمن زير بن عطية وهذا العهد يذكر أن الذي ولاه هو عبد الملك المظفر اذاً كان الخليفة الاموي يشعر بأن البربر خضعوا للدين وترقت حالتهم الفكرية وصاروا أمة لها مساس فائق بأحكام الاسلام وفيها ايضاً بعض الرجال يفهمون ذلك العهد المرسل من قبل الامير الاندلسي ولذلك فانه كان شديد الاعتناء بالحالة الدينية في ايالته المغربية .

ثبت بعد هذا ان الادب العربي لم يعرف الا بعد ان صار المغرب ولاية خاصة بالمروانيين على عهد زير بن عطية ومن بعده يلزمه ما يلزم مملكة الاندلس من قضاة وامراء وخطباء وان الرسوم السلطانية لم تكن قائمة كما صارت معروفة عند هذه الدولة بسبب اختلاطها بالدولة الاندلسية ودخولها تحت سيطرتها فان اختلاط المغاربة بالاندلسيين اكسبهم معرفة تامة بالحياة وانظمة اندلسية جديدة لا عهد للبربر بها واموراً حربية وغير ذلك من المبادئ التي صارت فيما بعد في الدولة اللمتونية من المقررات وبسبب ذلك وجد عندنا في المغرب في ذلك العهد قضاة وامراء وعلماء وخطباء ورجال يعرفون معنى الحياة العربية فان الفضل في الحقيقة لنشوء اسلوب كتابي مغربي كله يرجع الى الاندلسيين والى رجالهم الذين كثرت رحلتهم الى هذه العدوة لما رأوا ان المغرب قد ازهر ورقى عمرانه وتشذبت حالته وصار الغالب على رجاله التكلم باللغة العربية ولم تبق العاطفة البربرية هي السائدة وصار برابرة المغرب يعرفون ان هناك لغة عربية لها اساليبها الخاصة بها وقوانينها غير ان المؤرخين جميعاً يقولون ان المساجد كثرت في عهد دوناس ابن حمامة المغراوي وصارت فاس حاضرة المغرب من يومئذ ، قال صاحب الاستقصا : وفي ايام دوناس هذا عظمت فاس وعمرت وكثرت ارباضها وقصدها الناس والتجار من جميع النواحي ولم يشغل دوناس من يوم وَلي الى ان توفي الا بالتشييد والبناء هـ ولم يذكروا الخطب التي كانت تتلى في الجمعة والاعياد ولعل الخطب والرسائل السلطانية فقدت عقب الفتن التي قامت بعد هذا العهد أو كان الخطباء يخطبون ارتجالا ولم يدونوا لان جلهم كان من العلماء الذين غلب عليهم الحفظ على عادة علماء الاندلس والقيروان في ذلك العهد فكانوا لا يحتاجون الى التدوين والكتابة وفي عهد هذه الدولة تداولت الناس في الجملة كتب الفقه قال ابن ابي زرع وفي سنة ٣٦٢ دخل مغراوة المغرب وملكوه وتعرف هذه السنة بسنة لقمان المغراوي وفيها توفي الشيخ الفقيه الصالح الفاضل أبو ميمونة دراس بن اسماعيل وهو أول من ادخل مدونة سحنون مدينة فاس فأنت ترى ان المدونة دخلت الى المغرب وتناولها البعض قبل دخول مغراوة فلا بد ان تكون قد وجدت من يعرفها ويقبل عليها من العلماء والقضاة لان أبا ميمونة لم يكن ليدخلها الى المغرب وهو خلوٌ من رجال العلم واهله ، وقال ايضاً : وفي سنة ٤٠١ توفي الفقيه القاضي العدل الورع الصالح أبو محمد عبد الله ابن محمد بن محسود الهواري بمدينة فاس وولي القضاء مكانه بها الفقيه العالم القاضي العدل أبو عبد الله محمد بن ابي شعيب فبقي على قضاء مدينة فاس ستة وعشرين سنة الى ان قتل هو وبنوه قتلهم الامير دوناس بن حمامة المغراوي وكان القاضي أبو محمد من قضاة العدل وايمة الفضل زاهداً في الدنيب مقبلاً على الله تعالى على قدم التجديد هـ فلا بد ان يكون هؤلاء القضاة قد بعثوا في الشعب البربري نوعاً من العلم والمعرفة مع وجود العلماء الراحلين .

اذاً على هذا العهد نبت الاسلوب الكتابي الديني في المغرب وتكوّن غير انه لم يجد مساعداً يسنده فبقي قلقاً لا يستقر له قرار ولا يعرف له مكانا الى ان أتى من يعرف له مزية بعد هذه الدولة كما سنبين ان شاء الله .

قال صاحب الاستقصا ولما استولى حمامة بن زير بن عطية على عمل فاس والمغرب استفحل ملكه وقصده الامراء والعلماء واتته الوفود ومدحه الشعراء وكانت الدولة الاندلسية قد تداعت الى الاختلال فكان ذلك من اسباب استفحال الدولة المغراوية بفاس والمغرب واستقلا لها بالامر هـ.

وقد اجهدنا انفسنا في الكتب التي بين ايدينا فلم نجد ولو بيتاً واحداً من الشعر ولم نجدها ذكرت شاعراً واحداً مدح حمامة المغراوي أو رحل من أي قطر من الاقطار العلمية الى المغرب وصاحب الاستقصا يقول هذا بصدق واخلاص ونحن لم نجد شيئاً ولعل الشعراء حقيقه اتوا الى المغرب وقدموا على هذا الامير ومدحوه استجلاباً لماله فلم يعرف لهم المغرب قدرهم ولم يجدوا من ينشر عنهم شعرهم فرحلوا عنه وذهبوا عند من يقدر لهم قدرهم اذ المغرب في هذا الوقت كان له نوع استعداد الى العلم الديني فقط فلم يكن في هذا الوقت بمستطيع ان يفهم الشعر وما يقوله هؤلاء كما يفهمه الرجل الاندلسي أو الافريقي اذ ذاك وعلى كل حال فان الشعر العربي في المغرب لم يوجد في هذه الدولة كما لم يوجد عند الادريسيين قبلهم ولكن العهد المغراوي زاد على العهد الادريسي بالاختلاط مع الاندلس الزاهرة اذ ذاك وبكثرة الراحلين الى المغرب وبانتشار اللغة العربية وتداول اهل المغرب لكتب الفقه الاسلامي.

بقي ملوك مغراوة يتوارثون ملك المغرب الى أن طغوا وتجبروا وكثرت الفتن في المغرب وعم البلاء وساءت معاملتهم للرعية وداهمهم يوسف بن تاشفين وجيوش لمتونة وحاصروا فاس العاصمة الزاهرة وأخذوا بمخنّقها واشتدت وطاتهم على أهلها واضطرب حبل المغراويين بالمغرب ولم تبق لهم قوة على الدفاع عن أنفسهم وعقد أهل فاس البيعة لتميم بن معنصر المغراوي فلم يطق حملة اللمتونيين ، قال العلامة ابن خلدون : ثم عمد يوسف بن تاشفين الى فاس بعد ما فتح غمارة فحاصرها اياماً ثم اقتحمها عنوة وقتل بها زهاء ثلاثة آلاف من مغراوة وبفرنيين ومكناسة وغيرهم وهلك تميم بن معنصر في جملتهم حتى عجز الناس عن مواراتهم فرادى فاتخذوا لهم الاخاديد وقبروا جماعات وخلص من نجا منهم الى تلمسان هـ.

وأما دولة بني يفرن فلم تكن عظيمة الشأن كمغراوة ولم يكن لها أنصار وقواد عظام وكان منها يد بن يعلى اليفرني وابو الكمال تميم بن زير اليفرني وكانت خاصة ببلاد تادلا وشالة فلم تكن تجازها سوى للاغارة والنهب فيعمد لها الامير المغراوي فيفعل بها فعل النار بالهشيم ويفتك بها فترجع على أعقابها خاسرة .

هذا هو ما عند مؤرخي العرب ولو كنا نعرف لغة اجنبية — مع شدة الاسف — لأتينا بزبدة آراء هؤلاء الاجانب ثم على مغربنا وجميع حالاته .

رأينا بعد هذه الدراسة الكثيرة والبحث الكثير أن الادب العربي لم يولد في زمن الادريسيين ولم يولد في عهد المغراويين وانما نشأت على عهد هذه الدولة بعض مقدمات له وعرف اهل المغرب البربر معنى الشعر ومعنى اللغة العربية وكان الفضل في هذا كما قلنا لاهل الاندلس ولعلماء أفريقية الذين كانوا يرحلون الى المغرب الاقصى فيكتسب البربر منهم معرفة وعلماً وأن المائة سنة أو ما يقرب منها التي قضاها المغراويون في المغرب ولاة للامويين كانت زمن تأسيس لعلم وشعر كثير وشعراء عظام وجدوا في عهد الدولة التي أتت بعدها دولة يوسف بن تاشفين الفتية .

فلينتظرنا القراء ولتنتظرنا المجلة شيئا يسيراً فسنبحث في عهد الدولة اللمتونية وسنجد الشعراء والشعر العجيب والرسائل الكثيرة والمخاطبات الجميلة وموعدنا معهم ما سمحت لنا الفرصة وتهيأت لنا اسباب الكتابة وسمحت لنا أيضاً القراءة وما ذلك على همتهم بعزيز .

محمد المهدي بن ادريس

مصادر البحثين : القرطاس ـ ابن خلدون ـ الاستقصا ـ الدرة السنية ـ شجرة الاشراف ـ صبح الاغش .

هذا العدد هو آخر السنة الثالثة

وابتداء من العدد القادم نقطع المجلة عن السادات الافاضل الذين لم يؤدوا اشتراكاتهم .

وسيبرز العدد المقبل آواخر محرم .